

أهمية التعرف إلى أحوال السكان

إن الدعوة الإسلامية هي رسالة الأنبياء والرسول، وهي أيضا رسالة العلماء، لأن العلماء ورثة الأنبياء، ومن هنا نقف على أهمية الدعوة، ومكانة الدعاة. وللدعوة الإسلامية مكانتها في نفوس المسلمين جميعا، فإن سعادتهم دنيا وآخره ترتبط بها ارتباطا وثيقا.

ومن هنا كانت مسئولية الدعاة وأهميتهم، وكان تفاوتهم في نقل الدعوة بمنهجها الرباني البليغ، وبأسلوبها السامع الكريم، وبما تحتوى عليه من علوم دينية وأخرى دنيوية لا بد للدعاة من معرفتها، حتى تكون الدعوة في إطارها الصحيح، ويكون الدعاة قادرين على نقلها إلى كل البلاد والعباد على نحو دقيق وعميق، لا تشوية شائبة قصور أو خلل. وواضح أن لكل مقام مقالا، وإذا كانت البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإن أولى الناس بالبلاغة هم العلماء الدعاة، لأنهم ورثة الأنبياء، ولأنهم يقومون على نقل أشرف تراث في الوجود.

ومن أهم ما ينبغي على الدعاة أن يقفوا عليه بين ما يتعلمونه وما يتدربون عليه من علوم، التعليم السكاني، والتعرف على أحوال سكان البلد الذى يدعونه وعلى عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم والمعلومات التى يمكن جمعها عنهم وعن معتقداتهم، لأن الدعاة مثلهم مثل الأطباء قبل أن يصفوا الدواء للمريض، لا بد أن يحددوا نوع المرض وما يلزمه من دواء، وبعد تشخيص المرض، ومعرفة نوع الداء يتحدد الدواء وكذلك الحال بالنسبة للدعاة مع الذين يدعونهم، لا بد من التعرف على السكان وأحوالهم وسياساتهم وعاداتهم، وما ينتشر فيهم من رذيلة أو تقصير فى بعض أمور العبادات أو المعاملات.

فكما أن الطبيب لا بد له من التعرف على أحوال مريضه وتشخيص الداء، لأن ما يصلح من دواء لمريض قد لا يصلح للآخر، وما يصلح من كمية لإنسان قد لا تصلح لغيره، فكذلك أيضا الداعية لا بد أن يلم بمعلومات وافية عن سكان الموقع أو البلاد الذين يدعوهم حتى يستطيع أن يقدم لهم الزاد الروحي الذى يليق بكل واحد منهم.

وهكذا نرى أنه لابد من التعرف على المعلومات السكانية حتى تكون الدعوة ملائمة ومنسقة من الذين تدعوهم، وحتى يتعرف الدعاة على مواطن الداء، وعلى ما يحتاجه أهل كل منطقة أو بلد من التوجيهات اللائقة بهم.

ولقد كان قدوة الدعاة سيدنا رسول الله ﷺ يسأله أناس كثيرون، وكان السؤال واحداً فى كل مرة ولكن إجابته كانت تختلف من إنسان لآخر، ومن وقت لآخر، ومن مكان لمكان، والسبب فى هذا هو أن الرسول ﷺ كان يجيب كل سائل بما يليق بحاله، ويجيب أهل كل مكان بما يليق بحالهم وهكذا....

فقد سأل رجل رسول الله ﷺ: (أى الإسلام خير؟) قال: (تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)^(١).

وفى حديث آخر: عن أبى موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالوا يارسول الله أى الإسلام أفضل؟ قال: (من سلم المسلمون من لسانه ويده)^(٢) وهكذا كان يجيب سائل بما يكون أفضل فى حق السامع أو السائل أو أهل المكان الذين يحدثهم، فربما يكون قد ظهر من أحدهم قلة مراعاة ليدته ولسانه وإيذاء المسلمين، وربما يكون ظهر من الآخر إمساك عن الطعام والبعد عن السلام أو ما فيه استعلاء فأجابه على حسب حاله، وقد يكون السائل يريد من وراء سؤاله أن يعرف أهم المنهيات والأمور التى يجب عليه تركها فأجابه بقوله (من سلم المسلمون من لسانه ويده) ويكون الآخر سأل ليعرف خير الأعمال وأفضلها، فأجابه بإطعام الطعام وإقراء السلام، ومن المعلوم أن الإطعام مستلزم لسلامة اليد، والسلام مستلزم لسلامة اللسان.

وفى حديث آخر يسأله أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أى العمل أفضل؟ فقال ﷺ: (إيمان بالله وجهاد فى سبيله). قلت: فأى الرقاب أفضل؟ قال: (أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها) قلت: فإن لم أفعل؟ قال: (تعين صناعاً أو تصنع لأخرق)، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: (تدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك)^(٣).

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه البخارى.

وهكذا نرى اختلاف الإجابة باختلاف الأشخاص وأحوالهم، مما يدلنا على أن دراسة أحوال السكان وأهل البلاد أو المواقع الذين نتجة إليهم بالدعوة أمر ضروري، ولذا فإن الدعوة في حاجة ضرورية إلى معرفة تاريخ العالم وجغرافيته وأحوال السكان فيه فإن لكل مقام مقالا.

□□□

عالمية الإسلام

لقد جاءت الدعوة الإسلامية إلى جميع الناس ولم تختص بالدعوات السابقة بقوم دون قوم بل جاءت عامة في الزمان وفي المكان فهي خالدة باقية إلى أن يقوم الناس لرب العالمين إنها دعوة عالمية لجميع أجناس الأرض، وقد كفل الله تعالى لها خصائص عالميتها وعمومها، بالكتاب الذي أنزله، والرسول الذي أرسله.

والقوم الذين بعث فيهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، والزمان الذي أشرقت فيه الدعوة الإسلامية، والمكان الذي هبط عليه الوحي بها، واللغة التي نزل القرآن الكريم بها. فأما الكتاب الذي أنزله الله تعالى، فهو القرآن الكريم، الذي يمثل كلمة الله الأخيرة إلى أهل الأرض جميعاً ودستوره السماوي للبشرية جمعاء وإلى يوم القيامة. فأنزل الله تعالى القرآن بالحق، وكان مصدقاً للكتب السماوية التي أنزلت من قبله، ومهيماً عليها أي أنه مؤتمن على الكتب وحاكم على ما قبله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جمع الله فيه محاسن الكتب السابقة وزاده من الكمالات ما ليس في غيره كما يقول الإمام ابن كثير. وتتضح هذه الحقيقة من قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١) ومن قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^(٢) وقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بأنه أحسن ما أنزل إلى الناس من ربهم فقال جل شأنه: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٣).

ولأن القرآن الكريم هو الدستور السماوي الخالد إلى يوم القيامة تكفل رب العزة سبحانه وتعالى بحفظه من أي تغيير أو تحريف فحفظه الله تعالى في الصدور وفي السطور قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٤).

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة المائدة ٤٨.

(٣) سورة الزمر ٥٥.

(٤) سورة الحجر ٩.

ووضح رب العزة سبحانه عالمية القرآن الكريم، وبين سمة العموم والشمول فيه إذ يقول: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧). ووصف الله القرآن الكريم بأنه «الفرقان» لأنه فرق بين الحق والباطل كما فرق نقل العرب من عهد محلي إلى عهد عالمي، حيث بلغت الإنسانية نضجها ورشدها، إنه عهد انتهت فيه الإقليمية، وابتدأت فيه عالمية الدعوة، وختام الرسالة بمعجزة عقلية دائمة خالدة، فقال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١).

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يدعو الناس راجيا أن يكون أكثر الأنبياء تابعا، ويربط هذا بأن آيته الكبرى ومعجزته العظمى هي ما أوحاه الله إليه: إنه القرآن الكريم الذي يهدى للتي هي أحسن والذي جاء تبيانا لكل شئ والذي ختم الله به الكتب السماوية فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (٣). وأما الرسول الذي أرسله الله تعالى بالدعوة العامة الخالدة فهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد وضح القرآن الكريم أنه خاتم النبيين حيث قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (٤) وبين القرآن الكريم أن كل رسول من الرسل السابقين كان يبعث إلى قوم معينين ولم يبعث برسالة عامة، فلاحظ هذا فيما قص علينا القرآن من أنباء الرسل فتراه يحدد لكل رسول قوما معينين:

- ففي شأن نوح عليه السلام قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٥).

(١) سورة التكويد ٢٧.

(٢) سورة الفرقان ١.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) سورة الأحزاب ٤٠.

(٥) سورة هود ٢٥.

- وفي شأن هود عليه السلام قال تعالى: ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُوْدًا﴾^(١).

- وفي شأن صالح عليه السلام قال سبحانه: ﴿وَالِىٰ ثَمُوْدَ أَخَاهُمْ صٰلِحًا﴾^(٢).

- وفي شأن شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَالِىٰ مَدِيْنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾^(٣).

- وفي شأن عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ اِنِّىْ رَسُوْلٌ اَللّٰهُ اِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُوْلِىَّ اِنِّىْ مِنْ بَعْدِ اِسْمٰءِ اَحْمَدُ﴾^(٤). - أما فى شأن خاتم الأنبياء والمرسلين الذى جاءت رسالته عامة وخالدة فقال سبحانه: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَاكَ اِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيْرًا وَنَذِيْرًا﴾^(٥) وتحدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه بما اختصه الله تعالى به من عموم بعثته وغير ذلك من الخصوصيات حين قال صلوات الله وسلامه عليه: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(٦) فتحدث بنعمة الله عليه وعلى الناس حيث بعث إلى الناس عامة، وفى حديث آخر يقول «وبعثت إلى كل أحمر وأسود»^(٧) وفى بعض الأحاديث ما يفيد ختمه للرسول وعموم رسالته فى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون»^(٨) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون:

(١) سورة هود ٥٠.

(٢) سورة هود ٦١.

(٣) سورة هود ٨٤.

(٤) سورة الصف ٦.

(٥) سورة سبأ ٢٨.

(٦) رواه البخارى.

(٧) رواه مسلم.

(٨) رواه مسلم.

هلا وضعت هذه اللبنة قال: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(١). وهكذا دل القرآن والسنة على أن رسول الله ﷺ بعث للناس كافة وأن الله تعالى ختم به الأنبياء والمرسلين، وانعقد إجماع المسلمين قديما وحديثا على ختم النبوة والرسالة بسيدنا محمد ﷺ وأصبح هذا معلوما من الدين بالضرورة. فكل من ادعى بعد سيدنا محمد ﷺ النبوة فهو دجال مضل، لأن الله ختم به النبيين والمرسلين فلا نبي بعده، وهذا ما أكده القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وأجمعت عليه الأمة فيكفر مدعى خلفه. وأما القوم الذين بعث فيهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالدعوة العامة الخالدة فهم «العرب» قبل غيرهم وكانوا يتميزون بقيم راسخة فيهم منها: الوفاء والنجدة والإباء والسخاء والعفة، وإن كانت جاهليتهم - أحيانا كثيرة - تطغيهم أو تجعلهم يضلون، لكنهم مع هذا كانوا أحسن حالا من الأمم الأخرى التي كانت تموج بالفلسفات المتصارعة «كفارس» أو النزعات الاستعمارية «كالرومان»، لقد كان العرب أهدأ حالا من غيرهم، وكانت لهم فطرتهم وطبيعتهم التي كانت أحسن من غيرهم.

- وأما الزمان: فإنه جاء بعد فترة من الرسل، حيث بلغت الإنسانية نضجها ورشدها، وبعد أن مر على الإنسانية فترات كثيرة ورسالات عديدة كل رسالة تنشأ الإصلاح والخير، وتأخذ بيد الإنسانية إلى مراقي الرشد والهدى حتى جاءت الدعوة الخاتمة التي أصبحت الأمة بمنهاجها خير أمة أخرجت للناس.

- وأما المكان: فهو جزيرة العرب لموقعها الجغرافي حيث تقع في النقطة الوسط بين سائر الأمم من حولها، وهي الأمة الوسط بين حضارات الأمم السابقة فلا هي ذات حضارة مادية بحتة ولا روحانية بحتة بل هي الأمة الوسط قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٢) وفي بقعتها المباركة في مكة المكرمة توجد الكعبة المشرفة التي هي نقطة الوسط للعالم كله لترسل أشعة الهدى والخير إلى من حولها من جميع بقاع الدنيا وقارتها المتراامية. ولو شاء الحكيم الخبير أن يهبط الوحي في غير هذه البقعة لهيأ لها الأسباب فهو الخلاق

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) سورة البقرة ١٤٣.

العليم، ولكن كانت الحكمة أن تكون البيئة أمية بالقياس إلى الأمم الأخرى حتى لا يتسرب إليها شئ من الحضارات الأخرى أو الفلسفات التي عند غيرها فينتقل البعض بأن هذه الدعوة الإسلامية ليست وحيا سماويا أو يرتاب البعض ويدعى أنها من تأثير الحضارات الموجودة أو الثقافات القائمة، ولقد أشار القرآن إلى ذلك في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالِ مُيَسِرِينَ﴾ (٢) فكانوا أميين في الأغلب الأعم، وهي الحكمة في كون رسول الله ﷺ أميا لا يقرأ ولا يكتب حتى لا يكون لأي مخلوق تعليم له ولا فضل عليه بل إن ربه وحده هو الذي يعلمه ويوحى إليه، ولو لم يكن أميا لارتاب أهل الباطل وادعوا أنه جاء بهذا الوحي من الآخرين قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْتَلُونَ﴾ (٤٨) (١).

كما يتمتع مكان الدعوة بأنه الذي يقع فيه البيت الحرام أول بيت وضع للناس الذي هو قبله المسلمين، تهوى إليه أفئدة الموحدين وفي تلك البقعة تحققت دعوة إبراهيم عليه السلام فكان الأوفق أن تكون الدعوة العامة الخاتمة في هذه البقاع المباركة.

- وأما اللغة التي نزل بها الوحي الإلهي فهي اللغة العربية حيث نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين. والناظر إلى اللغة العربية، وما تميزت به من خصائص، وقارن بينهما وبين سائر اللغات الأخرى، يرى أن اللغة العربية تفردت بخصائص لا توجد في غيرها، فكانت جديرة أن تتشرف بكونها الوعاء الذي حمل الوحي الإلهي وجاء بها العبير القرآني لفظا ومعنى وحرفا وتراكيب وأساليب عجز عن الإتيان بمثل القرآن أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله سائر الخلق من إنس وجن وفصحاء وأدباء وكانت اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف بخصائصها العظيمة، ورحم الله الشاعر العربي الإسلامي حافظ إبراهيم شاعر النيل حين قال عن اللغة العربية:

(١) سورة الجمعة ٢.

(٢) سورة العنكبوت ٤٨.

وسعت كتاب الله لفظاً وآية
فكيف أضيّق اليوم عن وصف آله
وما ضقت عن آى به وعظات
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامنٌ
فهل ساءلوا الغواص عن صدقاتى



الإجتهد .. والتطور

إن أول مصادر التشريع الإسلامي القرآن الكريم، فهو المصدر الأول الذى تؤخذ منه الأحكام الشرعية، ثم السنة النبوية الصحيحة فهى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١) وهذان هما المصدران الأصليون، أحدهما: كتاب الله تعالى الذى أنزل متواترا بلفظه ومعناه، والثانى وهو الحديث النبوى منه ما هو توقيفى نزل معناه من عند الله تعالى ومنه ما هو توقيفى أخبر به رسول الله ﷺ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢).

وعن هذين المصدرين يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى»^(٣). وإلى جانب هذين المصدرين، كانت مصادر أخرى، اجتهد فيها الأئمة عبر عصور التاريخ وأعملوا الفكر نتيجة تطور الحياة، وما يستدعيه ذلك من اجتهادات فى بيان الحكم الشرعى لكل ما يستجد فى حياة الناس من أمور لم تكن فى القرآن الكريم ولا فى السنة الصحيحة، فاجتهد العلماء بشأنها، ومن هنا ظهرت تلك المصادر الأخرى مثل: «الاجتهاد» و«الإجماع» و«القياس»... وهكذا...

— أما الاجتهاد: فهو بذل العالم المجتهد أقصى طاقته العلمية فى استنباط حكم شرعى من الدليل بحيث يرى أنه لا زيادة على ذلك، ويتسع مجال الاجتهاد فيشمل ما لم يرد بشأنه نص فى القرآن أو السنة الشريفة. ومما يدل على أهمية الاجتهاد والدعوة إليه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٤) فأمر الله تعالى فى الآية الكريمة بطاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ وذلك بالتمسك بالكتاب والسنة وأمر بطاعة أولى الأمر فى غير معصية الله تعالى فلا

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة النجم ٣، ٤.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرک وابن عبد البر فى جامع بيان العلم.

(٤) سورة النساء ٥٩.

طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي قوله تعالى: «وأولى الأمر منكم» ما يفيد أن أولى الأمر الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا منا والمخاطبون في الآية الكريمة هم المؤمنون «يا أيها الذين آمنوا...» فشرط طاعتهم أن يكونوا مؤمنين «فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول» أى إذا حدث اختلاف فارجعوا فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وواضح أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١) يفيد أنهم عندما يختلفون في حكم من الأحكام لا يلجأون إلى الهوى، بل يجتهدون في استنباط الحكم من روح الآية والحديث بالبحث عما قد يكون غير واضح أو يكون غائبا عن العقول أو بتطبيق القواعد العامة بإلحاق الشبهة بشبيهه. ومن الأدلة على جواز القياس من السنة النبوية: ما روى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال أقضى بما فى كتاب الله قال: فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا ألو، قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدرى وقال: «الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله»^(٢) كما يدل العقل أيضا على جواز الاجتهاد، لأن الشريعة الإسلامية جاءت لكل زمان ومكان وهى خاتمة الشرائع، ومما لا شك فيه أن الحوادث والأمور التى تجد فى الحياة تحتاج إلى بيان حكم الشريعة فيها وهذا بالاجتهاد فى إلحاقها بنظائرها مما ورد بشأنه نص.

ومن أمثلة الاجتهاد فى عهده ﷺ: ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال خرج رجلان فى سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيما صعيدا طيبا فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ولم يعد الآخر ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال للذى لم يعد: «أصببت السنة وأجزأتك صلاتك» وقال للذى توضأ وأعاد: «لك الأجر

(١) سورة النساء ٥٩.

(٢) رواه أبو داود والترمذى والدارمى.

مرتين»^(١) فأقر كلا منهما على اجتهاده ولم يزد على أحد منهما اجتهاد الذى اجتهده. والمراد بقوله: «أصببت السنة» أى الشريعة الواجبة ومعنى «وأجزأتك صلاتك» أى كفتك عن القضاء، والإجزاء معناه: أن يكون الفعل مسقطا للإعادة.

ومن اجتهاد الصحابة رضى الله عنهم

اجتهاد سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى موضوع المرتدين الذين منعوا الزكاة مع إقرارهم بالإسلام، وإقامتهم للصلاة، واجتهاد أبو بكر رضى الله عنه فى أن يقاتلهم حتى يؤدوا الزكاة التى كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ^(٢) - بسنده - أن أبا هريرة رضى الله عنه قال: لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضى الله عنه، وكفر من كفر من العرب فقال عمر رضى الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» قال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عنها كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. قال عمر رضى الله عنه: فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق^(٣).

ومن اجتهادات سيدنا عمر رضى الله عنه: «ما روة ابن عباس رضى الله عنهما أن الطلاق الثلاث دفعة واحدة كان يعد واحدة على عهد رسول الله ﷺ وعهد أبى بكر رضى الله عنه وسنتين من خلافة عمر رضى الله عنه... ثم وجد عمر أن الناس قد أكثروا منه مع مخالفته لما شرع الله فقال: إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم تأديبا للمطلقين، وزجرا لغيرهم. ومن ذلك أيضا: اجتهاده فى عام المجاعة فى عهده حيث

(١) رواه النسائى وأبو داود، وهذا الحديث لفظ أبو داود.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه البخارى.

كثرت السرقات فأوقف الحد وهو قطع يد السارق أو السارقة المذكور في قول الله تعالى:
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾^(١)

أنواع الاجتهاد

والاجتهاد نوعان: اجتهاد فردي، واجتهاد جماعي:

فأما الاجتهاد الفردي: فهو أن يجتهد فرد في مسألة من المسائل كاجتهاد معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما بعثه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهل اليمن. ومثل اجتهاد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في تقسيم العطاء بين المهاجرين والأنصار... وأمثلة هذا النوع كثيرة.
وأما النوع الثاني وهو الاجتهاد الجماعي فهو كل أمر اتفق عليه المجتهدون كاتفاق الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين على إمامة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقتال ما نعى الزكاة، وما إلى ذلك.

الإجماع

والإجماع لغة: التصميم، أو جمع الكلمة على أمر... وفي الاصطلاح: هو أن يتفق أهل الاجتهاد من علماء الأمة الإسلامية، بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حكم شرعي.

(حجية الإجماع)

ويرى جمهور العلماء أن الإجماع حجة شرعية ويجب العمل به ومما يدل على حجية الإجماع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ عَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢). ومصادر الإجماع

(١) سورة المائدة ٣٨.

(٢) سورة النساء ١١٥.

أمران: الأول: القياس، وذلك بأن يقيس المجتهد مالا نص فيه، على ما فيه نص.
والثاني: رعاية المصلحة، كما حدث عندما تحرج أبو بكر في جمع القرآن قائلا: أفعل ما
لم يفعل رسول الله ﷺ فقال عمر: إنه أمر لا ضرر فيه بل فيه الخير.

القياس

والقياس لغة: التقدير... وفي الإصطلاح: فهو أن يشارك أمر لا نص فيه أمرا آخر فيه
نص في علة الحكم وإلحاقه به ونلاحظ أن القياس يشتمل على أركان أربعة:

الأول: المقيس وهو الذي يراد إلحاقه بغيره.

الثاني: المقيس عليه وهو الذي ورد نص على حكمه.

الثالث: الحكم وهو ما اشتمل عليه النص.

الرابع العلة: وهي التي يبني الحكم على أساسها ومثال القياس تحريم غير الخمر
من كل ما فيه علتها من السكر وغيبة العقل، فالخمر ورد النص القرآني بشأنها
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾^(١)
وغيرها من نبيذ الشعير أو التمر وغير ذلك من المشروبات والمطعومات والحبوب الحديثة
كل ذلك يقاس على الخمر.

ومن أدلة القياس: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا مِنَ النِّسَاءِ
فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢). فنهي عن قربان النساء في المحيض لعله هي الأذى
والضرر فقد ذكر الحكم بعلته مشيرا إلى أنه حيث وجدت العلة وجد الحكم وهناك بعض
الآيات التي فيها القياس كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣). ومن السنة ما روى أن امرأة من جهينة جاءت إلى

(١) سورة المائدة ٩٠.

(٢) سورة البقرة ٢٢٢.

(٣) سورة آل عمران ٥٩.

النبي ﷺ فقالت إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ « قال ﷺ: نعم حجى عنها رأيت لو كان على أمك دين أكننت قاضيته؟ أقضوا حق الله فإنه أحق بالوفاء». ومن مراعاة الإسلام لتطور الحياة ودعوة علماء المسلمين إلى الوصول إلى ما فيه الخير لحياتهم والمناسب لزمانهم ومكانهم أنه يأمر بالأمر أو التوجيه على سبيل العموم ويدع كيفية التنفيذ دون تحديد ليحددها أهل كل عصر بما يناسب عصرهم وبلدهم فمثل أمر الله تعالى بالشورى في قوله سبحانه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(١) وفي قوله تعالى ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(٢)... ولكنه لم يحدد طريقة معينة للشورى ولا شكلا محددًا حتى لا يثقل الناس بالتحديد وقد يكون في تنفيذه مشقة عليهم في زمن من الأزمان أو في مكان من الأماكن لأن الحياة تتغير وتتطور... بل إن مرونة التشريع الإسلامي تصل إلى درجة أنه قد تخفف عن الإنسان بعض العقوبات بل وتحمل عنه بعض ما لا يستطيع فمن ذلك ما روى عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذا جاء رجل فقال: يا رسول الله: هلكت: قال: مالك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم فقال: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا قال فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا قال: هل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا قال: اجلس فأتى النبي ﷺ يفرق فيه تمر قال: أين السائل؟ قال: أنا قال: خذ هذا فتصدق به فقال: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرطين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: «أطعمه أهل بيتك»^(٣) كما تتجلى معاني مراعاة تطور الحياة ومرونة التشريع الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان في قول الله تعالى: ﴿وَالْحَيْلُ وَالْإِغَالُ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) فالدواب والأنعام كانت وسائل النقل قديما، ولكن

(١) سورة آل عمران ١٥٩.

(٢) سورة الشورى ٣٨.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) سورة النحل ٨.

القرآن أشار إلى ما سيحدث من تطور بعد ذلك قبل أن تظهر الإكتشافات الحديثة من سيارة أو قطار أو طائرة أو صاروخ فقال: «ويخلق مالا تعلمون» وفي هذا تنبيه بل وتوجيه إلى البحث والاكتشاف والاختراع في وسائل الحضارة الحديثة. ويشير إلى تطور القوة في كل زمان ومكان في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(١).

□□□

(١) سورة الأنفال ٦٠.

الدعوة إلى التعارف والتآلف بين الناس جميعا

ومن مرونة التشريع الإسلامى وسماحته :

دعوتة إلى التعايش السلمى بين الناس بغض النظر عن أشكالهم وأجناسهم ومعتقداتهم فخطبهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فلم يقل «يا أيها الذين آمنوا ولا يا أيها المسلمون» بل قال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١) وبين أن الله تعالى كرم بنى آدم ولم يخص بالتكريم فئة دون أخرى بل قال ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢) فدعا الإسلام الناس جميعا ليتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا على البر والحق والخير، ونشر السلام فى الأرض، حتى تعيش البشرية فى أمن واستقرار، لافى حروب ودمار . كما وضح القرآن الكريم علاقة المسلمين بغير المسلمين وهى علاقة البر والعدل حيث قال سبحانه: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٣) إِنَّمَا نَهَىٰكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَّهُرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤) وقرر الإسلام حق أهل الذمة - من غير المسلمين - فى التكافل الاجتماعى فقد روى أن سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأى رجلا يهوديا كبيرا يسأل الناس، فسأله فى ذلك فعرف أنها الشيخوخة والحاجة، فأخذه إلى خازن بيت المال، وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم، وقال فى ذلك: «ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية شابا، ثم نخذله عند الهرم»^(٥) وهكذا يقرر الإسلام حق الضمان الاجتماعى لمن يعيش فى

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) سورة الإسراء ٧٠.

(٣) سورة الممتحنة ٨ ، ٩.

(٤) الخراج لابی يوسف.

رحاب الإسلام مسلماً كان أو غير مسلم. وقد ارتضى فقهاء الإسلام قاعدة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».. وحذر الرسول صلوات الله وسلامه عليه من ظلم المسلمين لغيرهم من المعاهدين، الذين بيننا وبينهم عهد أمان، ومن انتقاصهم لحقوقهم أو تكليفهم فوق طاقتهم أو أخذ شيء منهم بغير طيب نفس فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقتة أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»^(١) ولغير المسلمين حقوقهم في المجتمع الإسلامي لهم حق الأمان والحماية من أى عدوان داخلي أو خارجي سواء كانوا كتابين أو مشركين، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبَعَهُ مَأْمُومًا﴾^(٢) ولطالما شهد التاريخ بمواقف المسلمين حيال حقوق غير المسلمين، فعندما تغلب التتار على الشام وأسروا بعض المسلمين وأهل الذمة ذهب الإمام إلى حاكمهم وكلمه في إطلاق سراح الأسرى فأطلق أسرى المسلمين ومنع أسرى أهل الذمة، فأبى الرجوع إلا بإطلاق أسرى أهل الذمة وحصل له ما أراد. كما أعطاهم الإسلام حقهم في التنقل في دار الإسلام، وحقهم في حرية العقيدة «لا إكراه في الدين» وحقهم في التعليم وفي العمل وفي الانتفاع بمرافق الدولة. وتجاه هذه الحقوق فإن عليهم واجبات تتلخص في الرضا بالأحكام في المعاملات، وترك ما فيه ضرر بالمسلمين أو مساعدة أعدائهم أو التجسس عليهم وعدم الإساءة إلى شعائر الإسلام بل يجب إحترامها، والدفاع عن دار الإسلام إذا داهمها العدو. وهكذا يدعوا الإسلام إلى أن يعيش الناس في الحياة آمنين مسالمين، بل طالبهم بأن يدافعوا عن الحق والعدل وحقوق الإنسان، وأن ينصروا المظلوم وألا يعينوا الظالم، ولولا هذا الدفاع لضلت الحياة وهدمت قيمها ورموزها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣).

(١) رواه أبو داود والبيهقي.

(٢) سورة التوبة ٦.

(٣) سورة الحج ٤٠.

مراعاة التطور والمرونة فى التشريع الإسلامى

إن من بين أحكام الشريعة الإسلامية نوعا لا يتغير بتغير الأزمنة ولا الأمكنة، بل يمثل الثوابت والأصول، ومنها ما يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة. فأما الثوابت التى لا تتغير فهى الواجبات التى فرضها الله عقيدة وشريعة وأخلاقا، والمحرمات التى حرمها الله، والحدود التى قدرها سبحانه. وأما النوع الآخر فهو الذى يتغير حسب ما تقتضيه المصلحة زمانا ومكانا، كالعقوبات التى فوض الشارع فيها ولى الأمر وهى ما تسمى بالتعزيرات، وكالأمور التى تتغير بتغير البيئة والزمان والمكان، ومن ذلك ما حدث من عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه حينما كان واليا على المدينة فكان يحكم للمدعى بدعواه إذا جاء بشاهد واحد وحلف اليمين فكانت اليمين تقوم مقام الشاهد، ولكنه بعد أن تولى الخلافة وأقام فى الشام كان يحكم بشهادة رجلين أو رجل وأمرأتين، فلما سئل فى هذا قال: «لقد وجدنا أهل الشام على غير ما عليه أهل المدينة». ولما كان الإمام الشافعى فى العراق كان له مذهبه القديم فلما جاء إلى مصر كان له مذهبه الجديد الذى يلائم الزمان والمكان . ومن مراعاة التشريع الإسلامى لأحوال الناس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأله عدة أشخاص سؤالا واحدا ولكن إجابته كانت تختلف من إنسان لآخر مراعاة لأحوال الناس، فيجيب البعض بقوله: «إطعام الطعام وإفشاء السلام» ويجيب غيره بقوله «كف عليك لسان» ويجيب آخر بقوله «قل آمنت بالله ثم استقم» وهكذا نرى مراعاة التطور والمرونة فى التشريع ضرورية إذ الجمود يصيب الحياة بالتوقف والعقم، وهذا التطور وتلك المرونة لا تكون فى الثوابت ولا العقائد ولا التحلل من الأحكام ولا مجافاة الفضائل إذ أن الأمور الواجبة والثابتة لا تتغير بتغير الزمان ولا المكان حتى لا يفتح الباب للمفرطين والمتحللين. وبعد: فإن الإسلام دين عالمى، اتسمت دعوته بالعموم وجاء دستوره السماوى وهو القرآن الكريم تبيانا لكل شىء، وبعث رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وخاتما للمرسلين فلا نبى بعده، لأنه جاء بكلمة السماء الأخيرة إلى الخلق قاطبة، تجلت شريعته الغراء فى

سماحة لا نظير لها، ودعوة للسلام فى الأرض والتعايش السلمى بين الناس، والصلاحية لكل زمان ومكان لأنها باقية فلا دعوة بعدها، وعمامة للخلق أجمعين، وخالدة إلى يوم القيامة فاتسمت بالمرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، ونرى القرآن فى كل عصر كأنما أنزله إليه، إنه يشير إلى ما ستستكشفه العقول فى المستقبل من روائع المخترعات، وعجائب الاكتشافات، وكلها دلائل على الخالق للكون وللإنسان ولعقل هذا الإنسان وهو الله تعالى القائل ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١) والقائل سبحانه ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).. بل جاءت تشريعاته تدعو إلى تعاون الناس جميعا ودعوتهم إلى السلام قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾^(٣) وقال سبحانه ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٤).. ورد الخلائق جميعا من بداية البشرية إلى قيام الساعة إلى أب واحد وأم واحدة فقال ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٥)... وقال ﷺ: «كلكم لآدم» ليشعر البشرية جمعاء بأنها أسرة واحدة واجبها أن تتضامن وتتعاون لا أن يعادى بعضهم بعضا..



(١) سورة فصلت ٥٣.

(٢) سورة النحل ٨.

(٣) سورة البقرة ٢٠٨.

(٤) سورة الأنفال ٦١.

(٥) سورة الحجرات ١٣.

شروط المجتهد

إن الاجتهاد لا يبدأ من فراغ، ولا يعتمد على العقل وحده، وإنما يبدأ الاجتهاد بفهم ثاقب للأمور الجديدة، والأشكال الحديثة التي لم يرد نص في شأنها، ويتم ذلك في ضوء نظائر هذه الأشكال من كتاب الله تعالى وسنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ومن هنا فإنه لا يمكن أن يتأتى الاجتهاد إلا بمعرفة المجتهد لكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه. فلا بد أن يكون المجتهد حافظا لكتاب الله تعالى، وفاهما له فهما صحيحا بحيث يستطيع أن يجتهد ويستنبط الأحكام الشرعية منه. وأن يكون عالما بالحديث النبوي الشريف، وما اشتملت عليه مراجع السنة الصحيحة ودواوينها المعتمدة، وفي مقدمتها: الموطأ والصحيحان وباقي كتب السنة وأن يكون لدية الخبرة على استخراج الأحاديث من مظانها، والقدرة على تمييز الصحيح. وأن يحيط علمه بمسائل الإجماع حتى لا يكون مخالفا لما أجمع عليه العلماء من قبله. وأن يكون عالما باللغة العربية، ودلالة ألفاظها، والعام والخاص، والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل. كما ينبغي على المجتهد أن يكون عارفا بأصول الفقه، وكما قال الفخر الرازي: «إن أهم العلوم للمجتهد علم أصول الفقة» كما يشترط في المجتهد أن يكون عالما بالناسخ والمنسوخ. ومن الشروط الهامة للمجتهد ما ذكره الإمام الشافعي رحمه الله في قوله: «أن يكون ذو عقل حتى يفرق بين المشتبه، ولا يعجل بالقول دون التثبت، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه... ومن أروع ما أثر عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى - في الدلالة على الإخلاص في العلم والاجتهاد قوله: .. «وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم، وما نسب إلى شيء منه وما ناظرت أحد قط فأحببت أن يخطيء، وما كلمت أحد قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحد قط وإلا وأنا لا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه» ولا يشترط في الفقيه أن يكون متفوقا في كل أنواع العلم بل حسبه التفوق فيما برع فيه ليجتهد فيه، فإن التخصص في بعض علوم الشريعة عرف منذ العهد النبوي حيث قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين

الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم على، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبى، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وإن لكل أمة أميننا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح^(١) ومن بين الأمور الدينية ما يجب على كل مسلم معرفته وعلى عامة المسلمين أن يحيطوا علما به كأركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج وتحريم للكبائر من قتل وشرب خمر وزنا ونحو ذلك.. ومن بين الأمور ما لا يدركه علم عامة الناس مما ليس فيه نص من الكتاب ولا في أكثره نص من السنة وهذا ما يجب على المتخصصين من أهل العلم معرفته، وفي هذه الدائرة تتضح أهمية الاجتهاد. قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفَّةٍ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) ويتضح حكم الاجتهاد بأنه فرض كفاية على الأمة الإسلامية إن قام به البعض سقط الطلب عن الباقيين.



(١) رواه الترمذى وابن الأثير وأحمد وابن حبان.

(٢) سورة التوبة ١٢٢.

(٣) سورة النحل ٤٣.

مجال الاجتهاد

أما مجال الاجتهاد: فهو فى الأمور التى لم يرد فيها نص من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو الإجماع، فإذا وجد النص فلا اجتهاد مع النص، وكذلك الإجماع، لأنه إجتهد جماعى فلا تصح مخالفته. والاجتهاد مهم فى كل عصر من العصور، نظراً لما يجد فى الحياة من أمور وما يظهر من مصالح للناس لا تنتهى، ومن أحداث تحتاج إلى رأى الشرع فيها.

وفى عصرنا الحاضر جدت أمور لم تكن على عهد سلفنا ولم يرد فى شأنها نص من كتاب أو سنة أو رأى للسلف، مما يستوجب على علماء الأمة أن يجتهدوا فيها. ولئن كان سلفنا قد بذلوا أقصى ما فى الوسع الإنسانى فى تحصيل العلم وربما رحل أحدهم مسيرة شهر من أجل حديث واحد، فإن الأمر بالنسبة لعلماء عصرنا ميسر بصورة واضحة، فقد دونت دواوين العلم وامتألت المكتبات بكتب التفسير والحديث والفقهاء، فلا يوجد ثمة صعوبة فى الاجتهاد ولا عوائق تحول دون القيام به. وعصرنا الحاضر فى أمس الحاجة إلى الاجتهاد فى الأمور الجديدة، والوقائع الحديثة التى ظهرت أخيراً، ولم تكن موجودة قبل ذلك. وواضح أن حركته التطور فى الحياة سريعة، وأن البشرية تفاجأ كل حين باكتشاف جديد، ونظام حديث، ومعاملة لم تكن من قبل، وأشكال فى الحياة، وأنماط فى المعاملات لابد أن يلاحقها اجتهاد يتابعها ويوضح الحكم الشرعى فيها.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم لم ينزل لعصر دون عصر ولا لقوم دون قوم وإنما نزل صالحاً لكل زمان ومكان ولجميع العالمين وكل المخلوقات فهو يصلحها ويوجهه إلى إصلاحها، بهدايته إلى أقوم السبل، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١) إنه الدستور السماوى، العلمى الذى جاء معجزة كبرى، وهداية للعالمين قال تعالى. ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢) بل إن القرآن الكريم نفسه دعا المؤمنين إلى السير والنظر فى

(١) سورة الإسراء ٩.

(٢) سورة يوسف ١٠٤.

الحياة، للوقوف على ما فى كتاب الكون المفتوح والمنظور من دلائل يدركها كل ذى عقل تدل على أن لهذا الكون إلهها خلق فسوى وقدر فهدى، ودعا القرآن أتباعه أن ينظروا فى ملكوت الله وخلقها فى السموات والأرض، وفى نفس الإنسان، فقال جل شأنه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(١) ومع ما يعيشه العالم الآن من انفجار معرفى وتسابق حضارى، واكتشافات إثر اكتشافات، وتقدم فى وسائل العلم الحديث مع هذا كله لا بد من متابعة المجتهدين من العلماء، بالشريعة الإسلامية الغراء، حتى يظل هذا التقدم الهائل منضبطا بضوابط الحق والعدل، مصونا من أساليب الباطل والظلم، لأن هذا التقدم العلمى سلاح ذو حدين، يمكن أن يكون تقدما لخدمة البشرية، فيقدم لها كل جديد فيما ينفعها فى خدمات طبية وعلاجية، أو فى وسائل حضارية تختصر المسافات، وتقدم الراحة لبني الإنسان، وتوفر كثيرا من الزمن والمعاناة...

كما يمكن أيضا أن يستغل هذا التقدم الحضارى فيما يضر بالبشرية فينتج - مثلا - أسلحة الدمار الشامل، ويستغل التقدم المادى فى عوامل تخريب البشرية ودمارها ولا خلاص للإنسانية من هذا إلا بأن تظل تعاليم الإسلام وما دعت إليه الأديان من قيم ومبادئ، وعقائد وتشريعات وسلوك وأخلاق، أن تظل هذه التعاليم حاكمة على السلوك الإنسانى، لأن الإنسان - بلا وحى إلهى - بشر يخطئ ويصيب ويتأثر بالنوازع والأهواء، لكنه حين يكون متمسكا بتعاليم الوحي يرى أنها تدعوه إلى الحق فلا يجور على الآخرين، تدعوه إلى العدل فيبتعد عن الظلم تدعوه إلى السلام فلا يشن الحروب لأتفه الأسباب، بل يحرص أن يعيش فى سلام شامل وعادل. إن عالمنا الإنسانى يجب أن يقدم المجتهدون من العلماء، والمخلصون من الرواد له ما يجعله يشعر أننا جميعا أسرة واحدة شرقا وغربا وعربا وغير عرب مسلمين وغير مسلمين كلنا جميعا نرجع إلى أصل واحد، وآدم عليه السلام هو والد الجميع إن أصلنا واحد، وإن آبانا جميعا واحد، وإن أمنا واحدة، ﴿يَكْتَابُهَا

(١) سورة الذاريات ٢٠، ٢١.

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ ﴿١﴾^(١)

إن الإسلام لا يتعارض مع حركة التطور والتجديد ولا مع العلم الحديث ، بل إنه يدعو إلى التقدم وإلى مزيد من العلم ، لقد كانت أولى آيات الوحي الآلهي التي صافحت قلب رسولنا صلوات الله وسلامه عليه دعوة للعلم والمعرفة والقراءة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾^(٢) وما طلب الله من رسوله ﷺ أن يدعو طالباً منه المزيد إلا من العلم (وقل ربي زدني علماً) ودعا القرآن أن تسيّر وتنظر في ملكوت الله كما دعا الأمة إلى الاكتشاف والتقدم وأنه سيطلع خلقه على أسرار في ملكوت السموات والأرض وفي خلق أنفسهم ﴿سَرَّيْهِمْ مَا أَيَّتَنَّا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٣) وقال سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، وكل جديد يحتاج إلى بيان للحكم الشرعي ، فواجب المجتهدين أن يقدموا عطائهم الفكري لكل جديد في ضوء الكتاب والسنة. وقد جد على الساحة الدولية بعض الظواهر التي تستوجب على أهل الاجتهاد وعلى المسؤولين أن ينهضوا ببيان الحقائق ودحض الأباطيل ، فمن ذلك ظواهر التطرف الإرهابي ، التي كادت تكون ظاهرة عالمية يجب أن تقاوم ، وأن نعمل - متعاونين - على نشر السلام والأمن والاستقرار ، لقد لخص الله دعوة الإسلام وبعثة الرسول ﷺ في الرحمة بالعالمين ، جميع العالمين على إختلاف أنواعهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٥) . وحرص الإسلام على نشر مبادئه السمحة بالقدوة قبل الكلام والتوجيه... ومن الاجتهادات المعاصرة التنويرية الهامة تفعيل الدور الإسلامي لعرض الإسلام وتوجيهه لكل العلاقات والمعاملات الجديدة ، ودحض المقترحات التي تنقل عن الإسلام ، وما يتردد

(١) سورة الحجرات ١٣ .

(٢) سورة العلق ١ ، ٥ .

(٣) سورة فصلت ٥٣ .

(٤) سورة النحل ٨ .

(٥) سورة الأنبياء ١٠٧ .

من أنه دين العنف والعكس صحيح فهو دين الرحمة والسلام.. كيف وهو الذى دعا إلى
الرحمة والتسامح، وجعل سمات المسلم أن يسلم الناس من لسانه ويده، وعلامة المؤمن أن
يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

□□□